



د. رشيد طلبي

التقويم والتقويم التشخيصي: المعوقات والرهانات

دراسات وأبحاث

تقديم

إن الفعل التربوي التعليمي في المدرسة المغربية يقوم على مجموعة من المقومات التي من شأنها أن تنتج؛ "المواطن الصالح" كما حددته المرامي والغايات الكبرى في المرجعيات التربوية الوطنية. ومن أهم هذه المقومات نجد التقويم، الذي يرتبط بالتحقق من جدوى الفعل التعليمي-التعليمي. ومدى تمثيل المدرسة للخطاب البيداغوجي الراهن المرتبط بخطاب التجديد الذي أصبحت تفرضه المنظومة التربوية، تناسبا مع التحولات التاريخية وقضاياها الراهنة.

وبذلك، يحظى التقويم بأهمية بالغة في الفعل التعليمي، ليس على مستوى المثلث البيداغوجي فحسب، بل يمتد إلى الارتباط بالقرارات السياسية التي تحكم المنظومة بأكملها. مادامت تنشئ مفهوم الحياة المدرسية وانفتاحها على المجتمع وسوق الشغل. لذا؛ فهو يهدف إلى "التحقق من مدى اكتساب المعارف والمعلومات والمهارات، وكيفية نمائها في الحياة اليومية (المقاربة الوظيفية، والمواقف الحياتية)"¹.

وعلى الرغم من أن التقويم يتنوع وفق مراحل بناء شخصية المتعلم، فهو ذو أهمية في سيرورة الفعل التربوي والتعليمي، فخطاب بيداغوجية الكفايات لا يراهن فقط على المعارف والحفظ والتذكر، بقدر ما يراهن على المهارات والقدرات والمعارف والمعلومات وغيرها حيث أصبح يرتبط بالفعل التعليمي الممتد من الأسرة إلى التعليم بمستوياته المتعددة والحياة المدرسية وصولا إلى سوق الشغل والحياة المجتمعية. وضمن هذا السياق، يذهب "جيرار سكالون" (G.SCALLON) إلى ضرورة إدماج التقويم في الفعل التعليمي، مع مراعاة التنوع في وضعياته المقدمة للمتعلم، قبل إصدار أي حكم كمي أو كيفي.²

¹ - مولاي المصطفى البرجاوي: التقويم في المنظومة التربوية... المعوقات وضرورة التطوير. مجلة علوم التربية. عدد 63. أكتوبر 2015. ص 62.

² - A regarder GERARD SCALLON; l'évaluation des apprentissages dans une approche par compétence. Ed de renouveau pédagogique, saint-laurent. 2004.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الفعل التقويمي، قد عرف تحولات جذرية وفق التحولات السياسية والاقتصادية والتربوية التي تتبناها الدولة، وهي تحولات لازالت تعيش المفارقة بين مجتمع تقليدي ومجتمعي يخضع إلى حداثة مفروضة من خارج المنظومة المجمعية والفكرية والتاريخية. لذلك أصبح يعيش مفارقة بين الشهادة والكفاءة على جميع مستويات الفعل التعليمي. ولا أدل على هذا ظاهرة "الغش"، حيث أصبح المجتمع مهووسا بفكرة النجاح، بعيدا عن فعل التعلم وبناء المعرفة، لدرجة أنها أصبحت حالة سيكولوجية -مرضية تنخرط فيها الأسرة بكل مكوناتها سواء من خلال المدرسة الخصوصية أو الهجرة الموسمية نحو مجالات جغرافية أخرى، بغية الحصول على الشهادة والظفر بالنجاح، الذي لا يعدو أن يكون نجاحا مسروقا.

ومادامت السلطة التربوية قد عملت على تغيير استراتيجية الفعل التربوي منذ 2015 نحو 2030³. انطلاقا من الوثيقة الرسمية "الميثاق" التي صارت مرجعا لباقي الإصلاحات اللاحقة. ينبغي التساؤل حول فعل التقويم، الذي يخضع ضمن هذا السياق إلى الخطاب الرسمي، لكن هل يحافظ على الغاية من التربية؟ مادامت لا تهدف "حسب ربول إلى الإنضاج الطبيعي للإنسان كما ذهب إلى ذلك روسو أو بالترويض الاصطناعي كما عند السلوكية أو الجشطتلت، كما أنها لا تهدف إلى تكوين أفراد من أجل المجتمع كما دعا إلى ذلك دروكايم والمتأثرين به. وإنما بين الموقفين يوجد موقف ثالث هو الهدف الحقيقي من التربية وهو تكوين الإنسان في الإنسان من أجل الإنسان (...)"⁴.

1- التقويم: تعريفه وأنواعه ورهاناته

أكدت جل الدراسات العلمية في مجال التربية أن التقويم يرتبط ارتباطا عضويا باستراتيجية الرؤية نحو المستقبل، توافقا مع مستجدات العصر وتطور العلوم الإنسانية. وبذلك فهو: "عملية تعليمية - تعلمية مركبة، تتضمن إصدار حكم كمي وكيفي، بدءا من التشخيص والتعديل إلى العلاج، وهي عملية إنسانية تربوية وليست عقابا، بل تشخيصا وعلاجا لجوانب القصور في العملية التعليمية، وهو مجموعة من الخطوات المنظمة والمتكاملة، التي تسعى إلى تقدير مدى تحقيق النظام التربوي للأهداف المخططة له"⁵.

فهو يرتبط بعدة مفاهيم، مثل "القياس" بوضع معايير تحقق الفعل التعليمي لدى المتعلم من خلال نظام الاختبار باعتماد المعيار الأقصى والمعيار الأدنى. و"التقييم" الذي لا يخرج عن حكم قيمة للعمل الخاضع

³- أنظر المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي: من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030.

⁴- لطفي الحجلوي: فلسفة التربية الإشكاليات الراهنة. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ط1. 2009. ص54-55.

⁵- مولاي المصطفى البرجاوي: سابق. ص64.

للتقويم. ثم "التقويم" المرتبط بحكم كيفي يذهب إلى حدود وضع خطة للعلاج، حتى تتحقق "التغذية الراجعة" على مستوى المثلث البيداغوجي، في ظل رهانات استراتيجية التعلم والسياسة التعليمية في مجملها.

ويتنوع التقويم، من التقويم التشخيصي والتقويم التكويني/ البنائي إلى التقويم الإجمالي ضمن سيرورة العملية التعليمية – التعلمية، على اختلاف المادة المدرسية. وتجدر الإشارة إلى أن الفعل التقويمي لا ينفصل عن الفعل الديداكتيكي، فهو يحضر ضمن كل المراحل المختلفة للفعل التعليمي – التعليمي. وبذلك نقول "نحن ندرس بالتقويم الذي يستوجب الدعم الفوري خلال سيرورة بناء المعارف والمهارات والقدرات"، وليس التقويم فعلا يرتبط فقط بالامتحانات الاختبارات التي لا تعدو أن تكون من أدوات القياس والتقويم⁶، التي تدخل ضمن "علم الاختبارات" كما أشار إليه "هنري بيرون"⁷ (PIERON).

أما ما يخص "التقويم التشخيصي"، فالممارسات التعليمية لم تعط بعد الأهمية الكبرى التي لابد أن يحظى بها، حيث يتم القفز عليه بدعوى طول المقررات، سرعة الإنجاز لاستكمالها، خاصة أن التوجهات الرسمية، تشير إلى أن "أي تعلم لا يمكن أن يكون إلا إذا استند على مكتسبات ينبغي التأكد من تحصيلها عن طريق التقويم"⁸.

فكيف تم النظر إليه من قبل المخططات الوزارية استنادا إلى الرؤية الاستراتيجية (2015-2030)؟ هل استطاعت أن تضع خطة محكمة لتجاوز ضعف الاهتمام الذي يعانيه ضمن المنظومة التربوية؟ هل كانت في الموعد مع الفترة المخصصة له باعتباره محطة أساسية في انطلاقة الفعل التعليمي بالمؤسسات التعليمية؟ وما هي أهم الآليات المرصودة له في تشخيص مواطن الضعف سواء المهارية أو المعرفية أو السلوكية؟

2- التقويم التشخيصي ورهان استراتيجية الدعم

يحظى التقويم التشخيصي بأهمية بالغة إلى جانب التقويم التكويني، ضمن سيرورة العملية التعليمية- التعلمية، ونرصد من خلال "رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030" أنه تمت الإشارة إليه بشكل باهت على الرغم من أنه من أهم المحطات في انطلاق الفعل التعليمي وبناء شخصية المتعلم، ففي المادة (79)، الخاصة بالتقييم والامتحانات نجد ما يأتي: "ضرورة إصلاح شامل لنظام التقييم والامتحانات، على نحو يكفل تكافؤ الفرص بين المتعلمين (ات)، من خلال:

⁶- أنظر التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي. نونبر 2007. ص.9.

⁷- A regarder PIRON; examens et docimologie. Paris. PUF. 1963.

⁸- دليل الحياة المدرسية. دجنبر 2008. ص.30.

- تطوير دلائل مرجعية دقيقة حسب المستويات والأسلاك، للأنشطة التقييمية، سواء التشخيصية منها أو التكوينية أو الإسهادية أو المندرجة في إطار المراقبة المستمرة.

- تخصيص المناهج والبرامج لحيز يتناسب ومكونات التقييم وأهميته، من حيث التوجيهات التربوية والزمن والأنشطة والوظائف.

- تبسيط معايير وآليات التقييم والدعم التربوي، ضمانا لتوفر المتعلمين على حد مقبول للنجاح ومتابعة الدراسة فيما بين المستويات والأسلاك التعليمية.

- إعادة الاعتبار والمصدقية للامتحانات الإسهادية، خاصة البكالوريا، والرفع من جودتها، من خلال إعطاء الأولوية في السنوات الإسهادية للامتحانات الموحدة، جهويا ووطنيا، تحقيقا لمبدأ الاستحقاق وتكافؤ الفرص، وإعادة النظر في كيفية اعتماد نتائج المراقبة المستمرة فيها.⁹

نلاحظ من خلال هذه المادة، أنه تمت الإشارة إلى التقويم التشخيصي ضمن منظومة التقويم، الذي لا بد له من دلائل مرجعية مرتبطة بالتطور الذي ستعرفه المقررات، مع اعتماد التبسيط في آلياته عموما. لكن هل كان لهذه المقررات التنظيمية العامة تنزيل فعلي مرتبط بإحداث أثر على مستوى الفعل التعليمي -التعليمي. سواء على مستوى المذكرات أو المقررات التحضيرية للسنة الدراسية.

وبخصوص المذكرات الخاصة بالتقويم التربوي لم تتم الإشارة إلى التقويم التشخيصي، حيث تحصر أنواعه أولا في المراقبة المستمرة التي تضم الفروض الكتابية المحروسة والأنشطة المندمجة. وثانيا الامتحانات الموحدة¹⁰. أما على مستوى مقرر وزير التربية الوطنية والتكوين المهني بشأن تنظيم السنة الدراسية (2016-2017)، فنجد المادة (9) تشير إلى أنه ينبغي تخصيص "الحصص الدراسية الأولى، خلال الفترة الممتدة ما بين 19 و30 شتنبر 2016، لتشخيص المكتسبات الدراسية القبلية لإنجاز البرامج المقررة، وإجراء تقويم للمكتسبات الضرورية في المواد الدراسية الأدائية بالتعليم الابتدائي وجميع المواد الدراسية بالسلكين الإعدادي والتأهيلي. ومسك نتائج التلاميذ في البرنامج المعلوماتي الخاص بعبثات الانتقال، مع برمجة حصص الدعم لفائدة المتعلمين الذين كشفت عملية التقويم أنهم في حاجة إلى إعادة بناء تعلمات المستوى الأدنى (برنامج السنة الماضية) حتى يتمكنوا من بناء تعلمات المستوى الأعلى"¹¹.

⁹- رؤية استراتيجية للإصلاح 2030-2015. سابق، ص 39-40.

¹⁰- أنظر المذكرة في موضوع: التقويم التربوي بالسلك الثانوي التأهيلي مادة اللغة العربية. مذكرة رقم 02-142.

¹¹- أنظر مقرر وزير التربية الوطنية والتكوين المهني بشأن تنظيم السنة الدراسية 2016-2017. المذكرة رقم 16-446.

إن جل هذه المقررات التنظيمية العامة والخاصة لا تميز بين التقويم التشخيصي والتقويم المرتبط بالمستلزمات الدراسية. فالتقويم التشخيصي يمكن أن يحضر قبل بداية برنامج السنة أو المجزوءة الدراسية أو الوحدة أو الدرس أو الحصة. في حين أن تقويم المستلزمات الدراسية يكون عند بداية مرحلة تعليمية أو سلك دراسي تبعاً للتخصص الذي وجه له المتعلم. وهنا يطرح مشكل التوجيه الذي تعتمد إليه الوزارة المعنية. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف يتم التعامل مع المتعلمين الذين تم اكتشاف قصورهم في مبادئ أساسية ودروس لا غنى عنها لمواصلة التعلم؟ وأحياناً في مجموعة من المواد المدرسية المرتبطة بالتخصص؟ هل تتم إعادة توجيههم نحو تخصصات أخرى أم أن عملية الدعم ذات جدوى في هذه الحالة الصعبة؟ وهل سيسمح البرنامج والمقررات بتمديد وقت الدعم؟

ويظهر أن الوزارة حاولت أن تقوم بإعداد مذكرة حول المستلزمات الدراسية، وإذا كانت في السنة الماضية قد عملت على وضع رزنامة من البرامج التي ساعدت هيئة التدريس على القيام بهذه العملية، فإن نتائجها لم تستثمر بالشكل اللائق في عملية الدعم بأشكاله المتعددة والمتنوعة. حيث تم الفصل بين عمليتي التقويم والدعم. وبذلك تغييب فعالية هذه التقويمات في ظل غياب استراتيجية للدعم. أما بخصوص هذه السنة فقد اقتصر فقط على فعل الإخبار، دون اعتماد رزنامة تسمح لهيئة التدريس بالقيام بهذه العملية¹².

يظهر أن عملية تقويم المستلزمات المدرسية، تعرف مجموعة من المعوقات المتمثلة في ضيق المجال المدرسي الذي يعرف هذه التقويمات حيث لا تتجاوز 50% من المؤسسات التعليمية. علاوة على المدة الزمنية التي لا تحترم توقيت التحاق المتعلمين بالمؤسسات التعليمية العمومية على وجه خاص. ومما يبين التذبذب بخصوص التحاق المتعلمين؛ جاء في المذكرة الرسمية "تتم عملية التمرير في حصة واحدة إذا حضر كل التلاميذ أو تدريجياً حسب وثيرة التحاق التلميذات والتلاميذ بالفصول". كما أن المدة الزمنية الممتدة من 03 إلى غاية 20 أكتوبر 2016 قد لا تفي بالغرض المطلوب والتوصل إلى النتائج المرجوب فيها. وكأن العملية سيتم المرور عليها مرور الكرام. إضافة إلى هذا، فإن الالتحاق بالتلاميذ بصفوف المدرسة لم يبدأ إلا في 19 شتنبر من هذه السنة.

التقويم: المعوقات والحلول

يظهر أن التقويم يعرف معوقات كما هو شأن التقويم التشخيصي الذي يحظى بأهمية بالغة في الفعل التربوي والتعليمي على حد سواء. علماً أن التقويم الذي اهتمت به المقررات والتوجيهات الرسمية لم يخرج عن دائرة المعارف ومدى قدرة المتعلم على مواكبة التعلم في المستوى الأعلى، لكن الأجدر هو محاولة العمل على

¹² - أنظر مراسلة المركز الوطني للتقويم والامتحانات والتوجيه. رقم 16-418. بتاريخ 09 شتنبر 2016.

تقويم شخصية المتعلم في جميع جوانبها التي تدخل في علاقة متكاملة وعضوية في أفق ردم الهوة بين الشهادة والكفاءة والمعرفة التي أصبحت هي الهاجس الذي يعيش عليه التلميذ والطالب اليوم.

وإذا كانت هذه التوجيهات قد أكدت على ضرورة ملازمة التقويم لفعل التعلم، ففي حقيقة الأمر، نجد أن "واقع الممارسة الفصلية لا تؤكد هذه الوظيفة المثالية لفعل التقويم، وهو الواقع الذي تم فيه تبني العمل ببيداغوجيا الكفايات بينما لازال التقويم يستهدف المعارف والأفكار"¹³. وبالنتيجة فبينما تقرره التوجيهات الرسمية وواقع الممارسة التربوية توجد هوة سحيقة، مما خلق تدمرا لدى فئة هيئة التدريس بشكل عام، حين يجدون أن مجهوداتهم تذهب سدى في ظل المجهودات التي يبذلونها داخل الفصول الدراسية.

يذهب بنا هذا إلى القول إن المدرسة المغربية بدأت تفقد المعنى لجميع الممارسات التي تعرفها ابتداء من الأنشطة الصفية وصولا إلى الأنشطة المندمجة والموازية، في ظل غياب مشروع مجتمعي تنهل منه المدرسة وتعبأ له جميع القوى الفاعلة والحية في المجتمع المدني والسياسي. بعيدا عن الصراعات الإيديولوجية واقتصاد السوق.

إن الاختلالات التي تعرفها التقويمات اليوم في المدرسة المغربية، ليس رهينا بالمثلث البيداغوجي للعملية التربوية، بل يصل إلى مستوى الخلل السياسي والخيارات الرسمية التي لازالت تحتكم إلى مجموعة من المقومات الدولية في غياب مشروع مجتمعي تحضر فيه الهوية المغربية والثقافة المغربية والمواطن المغربي، فبدل منح الشهادات، لابد من إضفاء معنى أولا على الفعل الثقافي والتعليمي والتربوي، حتى تتمكن كل الهيئات المنضوية تحت منظومة التربية والتكوين من استرجاع هويتها ومكانتها التي هي مكانة مجتمع عريق له تاريخه وحضارته و أفقه المستقبلي في ظل الصراع الحداثي والعلمي الذي أصبح اليوم يعصف بكل مكونات المجتمع المغربي وأسسها القيمية.

فصل الختام

"وفي انتظار الجواب على سؤال الأسئلة: ماذا نريد من المدرسة؟ هل نريد الشهادة أم الكفاءة؟ نريد بناء الإنسان أم خلق أجيال من الضباع بالتعبير الذي وصف به الراحل "محمد جسوس" وضع الجامعة المغربية سنة 1987م."¹⁴

¹³ - مولاي المصطفى البرجاوي؛ سابق. ص 51.

¹⁴ - نفسه. ص 61.